ل.م.د / س2 / س4

الاقتصاد البربري في المغرب القديم

إن الكلام عن العمران الاقتصادي لبلاد البربر في العصور القديمة يحتاج إلى حذر كبير، فالمادة التاريخية والأثرية التي بحوزتنا لا تسمح بدراسة معمقة لهذا الجانب، لكونها لم تهتم بالحضارة البربرية الاهتمام الذي أولته للحضارات الأخرى كالقرطاجية أو الرومانية. وعلى كل حال يمكننا إن نستخلص مما بين أيدينا من المادة التاريخية الخطوط العريضة لهذا الاقتصاد البربري القديم.

أ- البداوة والرعي والماشية:

يتفق المؤرخون على أن الأرض المغربية كانت أرضا جيدة لرعي الماشية، فسالستيوس يؤكد هذا، ويدعمه بولبيوس واصفا الحظيرة الرعوية بقوله: " في هذه البلاد تكثر الخيل والبقر والخرفان والماعز لدرجة لا أظن أننا نجد مثيلا لها في كل بقية العالم"، ويزيد مبينا سبب ذلك أن الكثير من القبائل الليبية لا تستعمل منتجات الزراعة بل تعيش منا ماشيتها ومعها. وبالرغم من المبالغة في هذا الكلام إلا أننا نستشف منه غلبة الطابع البدوي الرعوي على المجتمعات البربرية، حتى عرف بعضهم بالنوميديين لعيشهم على الرعي في الغالب، الطابع الرئيس الذي تمتاز به المجتمعات البدوية.

لقد فضل البربر طوال تاريخهم العيش على الطريقة الرعوية، وتحاشي الاستقرار للزراعة في أغلب الوقت، هذا ما يؤكده سترابون في قوله: " الموريون، رغم أنهم يسكنون في الغالب منطقة صالحة للزراعة، واصلوا في أغلبهم كبدو رحل"، ونفس هذا الكلام نجده له عند النوميديين، وقد حاول "قزال" مخففا معرفة سبب هذا الإصرار على طريقة العيش هذه ذات الطابع الرعوي خالص، فأكد أن ذلك راجع " دون شك" كما يقول للعادة والخمول. وأيضا لرأي البربر أن ه كان أسهل عليهم حماية ماشيتهم من حماية مزروعاتهم من الغارات.

لم يثبت البربر على بداوتهم طوال الوقت، فقد انقسموا بعد حين إلى صنفين، صنف له بيت ثابت وهم القلة، وصنف سار على طريقة أجداده البدوية المحضة، وقد أشار إلى هذا الانقسام " بونبنيوس" *PONPONIUS* وسالستيوس. أما الأوائل فسكنوا قرب الجبال الغابية في نواحي التل، حيث تستطيع ماشيتهم العيش بهدوء طوال السنة، يتوفر لها الماء والمرعى الوافر، من إمكانية عيش

رعاتها في إقليم شتاؤه معتدل وصيفه متوسط، كان الأغلب على هؤلاء الرعاة رعي الماشية الكبيرة كالبقر والخيل.

أما الصنف الثاني منهم فكانوا يعيشون في تنقل مستمر في السهول الداخلية، حيث يمتلكون أراض واسعة، يتنقلون فيها متابعين المناطق الرعي الخصبة بالماء والغذاء، وكان يلائمهم زراعة الخراف والماعز وربما الخيل والحمير، ويمثل هؤلاء بوضوح حسب "قزال" قبائل الجيتول الذين شبههم سترابون ببدو العرب.

أما عن الحظيرة الرعوية لهؤلاء الرعاة، فبخلاف الخيل لا نعلم شيئا كثيرا عن الحيوانات التي رعوها، إلا أنه كما يبدو لم يكونوا يأكلون لحم الخنزير خاصة الليبيون منهم ربما متابعة للفراعنة في ذلك|، أو أنه تقليد أخذوه عن الفينيقيين الذين لم يكونوا يأكلونها. واشتهر في هذه الحظيرة الخرفان واشتهر منها النوع البربري *BARBARINE* ذات الذيل الغليظ، وكانت تقاد هي والماعز دون استعمال الكلاب، ومما يدل على كثرة هذه الماشية أن قرطاجة فرضت على البربر ممن أعان القنصل الروماني ريغولوس قي حربه عليها ضريبة قدرها 20 ألف رأس بقر، وعلى ما في هذه الرواية من مبالغة إلا أنها تصف لنا حجم الحظيرة الرعوية لجزء من الناحية التونسية فقط، فما بال النواحي الأخرى الأكثر رعوية؟

واشتهرت البلاد النوميدية بالخيل، التي كان أكثر استعمالها في الحروب، فيذكر أن سيرته وحدها أمدت الملك مكسبا ب10 ألاف رأس في إحدى حروبه " سترابون"، لهذا اهتم هؤلاء الملوك بتربيتها بشكل خاص، حتى أنهم كانوا يحصون عدد صغارها، وقد بلغ عددها عند أحدهم المائة ألف رأس، وبلغ اهتمامهم بها أن جعلوها شعارا وضعوه في عملاتهم كما فعلت قرطاجة. ولم يهتموا بها لغرض الحرب فقط بل للتسلية أيضا وقد شارك مستنبعل بن ماسينيسان سنتي 168 و 164 ق.م في سباقات الخيل للألعاب الإغريقية وانتصر فيها.

بـد الـــــزراعة:

كانت زراعة القمح والشعير الغالبة على البلاد المغربية، وقد ظهرت فسائلها في العملات النوميدية والموارية كشعار لها، مما يظهر قيمة هذه الزراعة على وجه الخصوص وتحيزها في فترات زمنية مراتبة ربما فاقت رعي الماشية، فقد كانت داعما قويا لروما في حروبها، وقد بعث ماسينيسان

كميات كبيرة لها أثناء ذلك، بلغت في إحدى المناسبات مليون صاع فرنسي قديم من القمح، وكذا فعل أبنائه بعده. وكانت روما تأخذ من إقليمها الإفريقي الجديد سنة 46ق.م حسب " بلوتارخوس" *PLUTARQUE* مليون ومائتي ألف صاع فرنسي قديم من القمح كضريبة سنوية فيما يبدو.

لقد كانت هذه الأرض كما وصفها ساليستوس أرضا مثمرة غنية صالحة للزراعة أو كما قال: *FRUGUM FORTILIS*، وشهرتها نجد لها أوصافا خيالية عند التاريخيين القدماء، حيث ذكروا أن الفسيلة الواحدة كان يبلغ طولها أحيانا 2.20سم، وذكر أشياء أخرى تدل ‘لى أن زراعة المغربية القديمة كانت ذات صفات أسطورية.

إن تاريخ هذه الزراعة قد عرف منذ القديم عند البربر قبل الولوج الفينيقي بكثير، وقد بلغت حتى مناطق الصحراء اليوم، وزعم القدماء أم ماسينيسان هو الذي أدخل هذه الزراعة إلى تلك البلاد اجتمع عل هذا القول أكثرهم من أمثال سترابون بولبيوس وأبيانوس هذا الذي يقول: " إن العناية اللاهية هي التي جعلت ماسينيسان يحي رقعة واسعة من المعمور، كان النوميديون يقتاتون فيها بالحشائش فقط، لأنهم لم يكونوا يعرفون الزراعة". ومهما كان في هذا من مبالغة فلا شك ا، لماسينيسان أن الفضل في توسيع وتطوير الزراعة في بلاد المغرب، فقد رجا من وراء ذلك منافع كثيرة فرعاياه أصبحوا متعلقين بالأرض وأقل توترا، وأكثر خضوعا، وقادرين على دفع ضرائب وعشور الزراعة، كما أن هذا جلب استقرارهم وبعدهم عن البداوة الشرط الرئيس في تحضير البلاد النوميدية. لقد كان ماسينيسان قد ورث العلم الزراعي لقرطاجة بوراثته لألها ومستعمراتها، ولقد تواصل هذا الزخم الزراعي بعده إلى عهد يوبا الأول في البلاد النوميدية، بخلاف المناطق الموارية التي تخلفت فيما يبدو عن هذا التطور الزراعي كما يذكر " بوبنبونيوس ميلا".

وكانت هذه الزراعة تحتاج إلى آلات زراعية للحرث والحصد والنقل والتخزين، والتي دون شك قد عرفها البربر واستعملوها فيها أنواعا خاصة، ابتكروا بعضها واقتبسوا بعضها الأخر من الحضارة القرطاجية والرومانية.

إلى جانب هذه الزراعة عرف البربر الزراعة الشجرية التي كانت اختصاص جيرانهم القرطاجيين، ورثوها عنهم فيما يبدو، فقد ظهر في عملات بربرية موارية صور لعراجين العنب ما يدل على فضل هذه الزراعة عندهم. كما عرفوا زراعة شجر الزيتون بكثرة استمروها في استخلاص زيته

الذي اشتهرت به أيضا، وقد أشارت المصادر إلى أن يوليوس قيصر قد فرض سنة 46 ق.م على مدينة لبدة(لبتس كبرى) ضريبة قدرها 11 ألف هكتولتر من الزيت، وهي كمية هائلة.

واهتم البربر بزراعات أخرى كثيرة وصناعات تحويلية زراعية، من ذلك من تربية النحل وإنتاج العسل، فقد عرفت الكثير من المناطق هذا المنتوج، وقد ظهرت عملة مدينة روسادير *RUSADDIR* الموارية صورة نحلة حوالي الق1 ق.م وهذه الزراعة أيضا هي موروث قرطاجي فيما يظهر.

واختلف في طبيعة ملكية هذه الأراضي الزراعية خاصة أراضي الحبوب، وقد وجد في القديم أنواع من الأراضي وتنظيماتها، وهي على قول "قزال":

1-أراضي داخلة في ملكية جماعية لمجموع الرجال الذين يشكلون جمهورية قروية، يكون استثمارها جماعي كما هو حال استثمار ناتجها، الذي يتم توزيعه على الأسد(العائلات) على حسب أعداد أفرادها، ويرى قزال أن هذا النظام مستبعد عن البلاد البربرية في العصور القديمة لبعدها عن النظام الشيوعي الجماعي.

2-تنظيم أخر اتخذه قدماء الجرمان وهو أليق بالبربر، وهو أن الأرض مع بقائها جماعية الملكية توزع الأراضي المزروعة على العائلات كل سنة، تملك معها كل عائلة نتاج الأرض التي استثمرتها.

3-وفي نظام أخر يقومون بتقسيم الأرض على ملكيات خاصة، إما عائلية يتولى في العادة شيخ العائلة كوكيل عليها، أو فردية يتولاها كل فرد كملكية خاصة.

وقد تعرضت الأراضي الزراعية هذه للاغتصاب في العهد الروماني، وإن حاز بعض البربر استثناءا أراض واسعة في بعض الأوقات في العصر الروماني، يذكر منهم أحد حفدة ماسينيسان عرف بيوليوس *GAIUS JULIUS* كان يملك أرضا زراعية ضخمة بوسط تونس عرفت بالأوبيدوم *OPPIDUM*، ولا يعرف أكانت ميراثا عن أجداده أم تملكها الرومان؟

وفضلا على معرفة البربر لتربية الماشية والزراعة فقد عرفوا أيضا نشاطات فلاحية أخرى منها الصيد، فقد عرفوه لأسباب عدة، فبالإضافة لكونه أحد معايشهم. وإن كان ذلك قليل لوجود عندهم خاصة منه الصيد البحري، فقد كان سبيلا لحماية مواشيهم من الحيوانات المفترسة، كما كان مصدرا تجاريا. ورغم بعد السمك عن أن يكون أحد مهمات غذائهم إلا أنهم عرفوا صيده وإن بصفة قليلة ويبدو أنه موروث عن قرطاجة، إذ وجدت لهم أحواض صيد، كما عثر في الناحية السيرتية على مواضع

لتمليح السمك وصيده، كما عرفت مدينة لكسوس الموارية صيد السمك بدليل وجود صورة سمك الأتون على عملاتها.

ثـ التـــــجارة:

لم يكن للبربر في العصور القديمة قدما قوية أو حتى مذكورة في التجارة المتوسطية، فيبدوا أنهم لم يلجوا هذا الميدان إلا بعد نهاية قرطاجة ودخول مستعمراتها في الحاضنة البربرية، خاصة النوميدية منها، فالظاهرة التجارية لم تنتشر عندهم بقوة إلا بعد ظاهرة زراعة الحبوب التي استحدثها ماسينيسان إذ احتاج لتحويل فائض الكبير منها إلى الأسواق الخارجية، لذا كانت المادة الأولى لهذه التجارة، وقد كان التجار الإيطاليون المتواجدون بسيرته وغيرها في أكثرهم سماسرة هذه الحبوب، كما كان ملوك البربر أكبر متاجرين فيها، إذ كانوا يحتاجون لتحويل الضرائب العينية منها إلى الخارج، وكل هذا كان يحتاج إلى أسواق ومخازن وسفن وطرق تحميل تطورت مع الوقت إلى صناعات تابعة لهذا الميدان الزراعي.

واهتم البربر أيضا بالتجارة الخشبية، فقد كانت البلاد غنية بشجرة التوية *THYA* أو الأرز أو سيتروس، *CITRUS* والذي كان مطلوبا في المتوسط، وقد تاجر به ماسينيسان مع جزر روديس هو و العاج ولقي هذا الخشب في نهاية العهد الجمهوري الروماني وبداية الإمبراطوري إقبالا رومانيا كبيرا عليه، استعمل في صناعة الموائد والطاولات، وكان يدفع فيه الشيء الكثير وكثر الطلب عليه زمن يوبا الثاني وابنه حتى لم يبق من غاباته إلا الشيء القليل.

وقد تاجر البربر أيضا بكثير من المواد الأخرى خاصة تلك العائدة من الصيد، كالعاج وبيض وريش نعام، وجلود السباع، والقرود كلها كانت من مقتنيات القرطاجيين والإغريق والرومان. ويذكر في هذا أنهم أمدوا " المسرح الروماني" بالعديد من حيواناته، يظهر هذا في قانون روماني قديم يمنع بموجبه إدخال الحيوانات المغربية المفترسة *AFRICANAE* مما يوحي بكثرتها ونشاط تجارتها، ومنه أيضا أن "بومبي" *POMPEE* احتفل في افتتاح مسرحه سنة 55 م ب410 هر و 500 أو 600 أسد، و20 فيلا متصارعة ضد جيتوليين مغاربة.

ولقد جلبت التجارة الخارجية أنواعا من الصناعات التي كان معظمها موروثا قرطاجيا بالنسبة للبربر، من ذلك استثمار الثروات المنجمية، وخاصة المرمر الأسمر والوردي والذي اشتهر بالمرمر

النوميدي، عرف في روما منذ سنة 78 ق.م وقبل ذلك كان من أهم مراكز استخلاصه سهل " سيميتو" *SIMITHOU* الذي كان يحوزه ماسينيسان وحفدته. وتعوزنا المعلومات عن الصناعات الموروثة عن قرطاجة والمحلية أيضا ودون شك كانت كثيرة ومتنوعة، لا نعرف من آثارها اليوم إلا الشيء القليل ومنها الصناعة الصبغية القماشية القوية لمدينة " موغادور" *MOGADOR* على الساحل الموري من إنشاء الملك يوبا الثاني.

فمن كل ما سبق يتبين لنا أن الاقتصاد البربري القديم قام على خصوصيات محلية قوية، رعتها الطبيعة البدوية الغالبة، فضلا على التأثيرات الإقليمية القرطاجية والمحلية والسياسية، وأنه بالرغم من أوصاف التخلف التي وصف بها في بعض جوانبه إلا أنه يبقى اقتصادا ذا طابع محلي قوي لم يقتبس من غيره إلا بصدر ما يحتاجه في تحسين جوانبه المختلفة... اهـ.

❖ المصادر والمراجع:

❖ اصطيفان اكّصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة محمد التازي سعود، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007.

❖ غابرييل كامبس، البربر ذاكرة وهوية، تـ. عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014م.

❖ محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1992م.

❖ سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، تـ. السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، 1986م.

❖ دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، تـ. نسيم واكيم الياجزي، دار علاء الدين، دمشق، ط. الأولى، 2000م.

❖ محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، 2008م.

❖ محمد البشير الشنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

❖ محمد بيومي مهران، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1440-1990م.

❖ محفوظ قداش، الجزائر في العصور القديمة، ت. صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت.